ظواهر فى حياتنا الأدبية ... !

للأستاذ أنور المعـــداوى

فى حياتنا الأدبية ظواهر تستوقف النظر ، وتغرى بالبحث ، وتدعو إلى التأمل والمراجعة . وتستطيع أن نسمى كل ظاهرة من هذه الظواهر مشكلة ؛ لأنها فى حقيقتها مشكلة تتعدد فيها الجوانب ، وتتشعب الزوايا ، وتبقى بعد ذلك فى انتظار العلاج ! ولك أن تضع مشكلة النقد الأدبى فى مقدمة المشكلات التى تعانيها الحياة الأدبية عندنا فى هذه الأيام ؛ فالنقد الأدبى فى مصر هو « نقد الأغمار » كما جاء الأستاذ العقاد وأصاب فى التسمية . ولقد تناول الأستاذ العقاد هذه المشكلة فى معرض حديثه عن أحد الكتب التى ظهرت حديثاً حول فتنة عثمان ، تناولها من زاوية الإشارة ولفت الأنظار ، لا من زاوية النفاذ إلى مكامن العلل والأسباب ، ومن هنا كانت اللفتة العابرة فى حديثه أشبه بلقطة « الكاميرا » السريعة التى تجيد اختيار الزاوية عند التقاط الصورة ... أما أنا فأحب أن ألتقط الصورة من زواياها المتعددة لأستطيع أن أعرض للمشكلة لوحة لا تنقصها وفرة « الرتوش » !

أول زاوية يمكن أن ننظر منها إلى المشكلة هي أن أكثر الذين يتولون صناعة النقد لا يصلحون لها ؛ فبعضهم تنقصه الثقافة الرفيعة فهو من أنصاف المثقفين ، وبعضهم تنقصه التجربة الكاملة فهو من المبتدئين ، وبعضهم ينقصه الذوق المرهف فهو من ضعاف الملكة وقاصرى الأداة ! هذه الأركان الثلاثة من أركان النقد الأدبى نضعها مجتمعة فى كفة ، لنضع فى الكفة الأخرى ذلك الركن الخطير الرابع ونعنى به الضمير الأدبى ... وهو وحده مشكلة المشكلات ! وماذا تجدى الثقافة ، وماذا تجدى التجربة ، وماذا يجدى الذوق ، إذا كان الضمير الأدبى لا وجود له ؟ لا شىء يجدى على الإطلاق ؛ لأن الضمير وجه الثقافة فلا تجور ، ويهدى التجربة فلا تضل ، ويرشد الذوق فلا ينحرف ... وماذا نعمل وأصحاب الضمير الأدبى فى مصر هم فئة من ذوى الأهواء والأغراض ، يسيرون فى ركاب هذا وذاك ، يصفقون وليس هناك ما يدعو إلى التصفيق ، ويهتفون وليس هناك ما يدعو إلى الهتاف ؟ ! الضمير الأدبى فى مصر هو مشكلة المشكلات . وأعجب العجب أن الذين يتولون صناعة النقد فى هذه الأيام لا يشعرون بأنهم معرضون لميزان الناقدين ، وأنهم حين يظفرون بثناء بعض الناس يفقدون احترام الآخرين ... إنهم لا يشعرون بشىء من هذا لأنهم أغمار ، ولأنهم أصحاب أهواء وأغراض !

النقد الأدبى فى مصر تنقصه هذه الدعائم الأربع مجتمعة : الثقافة ، والذوق ، والتجربة ، والضمير ... وأقول مجتمعة لأن هناك المثقف المحروم من الذوق ، فهو قد يوفق حين يقدم إليك نظرية فى النقد الأدبى ؛ ولكنه يخفق إذا ما وصل إلى مرحلة التمثيل والتطبيق ؛ ذلك لأن موهبة الذوق الفنى عنده لم تنضج كل النضوج ، والنقد فى أصدق صوره وأكملها لا يقوم إلا على التوفيق بين القاعدة والمثال ... وهناك المثقف الذى لم يمد ثقافته بروافد من التجربة الكاملة ، ونعنى بها معالجة الكتابة فى النقد الأدبى على هدى الإحاطة التامة بأصوله ومناهجه ... وهناك المثقف الذى تجتمع له الثقافة والذوق والتجربة ولكنه يتخلى عن ضميره لقاء غرض من الأغراض !

هذه هى بعض الزوايا التى ننظر منها إلى من يتولون صناعة النقد فى هذه الأيام ، وتبقى بعد ذلك زاوية لا تقل عن سابقاتها خطورة ، وهى أن هؤلاء الناس تنقصهم صفة التخصص ؛ فبعضهم يتحدث عن القصة وهو لا يعرف شيئاً فى فن القصة ، وعن المسرحية وهو لا يدرك على أى الدعائم يجب أن يقوم البناء الفنى للمسرحية ، وعن التاريخ الأدبى وهو لا يستطيع أن يفرق بينه وبين غيره من ألوان الدراسة الأدبية ، وعن الشعر وهو محروم من نعمة الشعور ! ومما يبعث على الأسى والأسف أن بعض الأدباء ممن كانوا يحذقون صناعة النقد قد انصرفوا عنها إلى الكتابة فى الصحف اليومية جرياً وراء المادة ، غير مبالين بالفراغ الذى تحسه المكتبة العربية فى هذا المجال منذ سنين !

ونترك النقد الأدبى لنتحدث عن مشكلة أخرى هى مشكلة القصة المصرية الحديثة ... وأول شىء نقرره هو أن القصة عندنا لا تزال تخطو فتتعثر ، سواء فى ذلك القصة الطويلة أو القصيرة

التحليلية أو الموضوعية ، التاريخية أو الذاتية ، ومرجع هذا إلى أن كتابنا القصصيين لا يسيرون على القاعدة التي وضعها مارك سوان حين قال : « يجب أن يكون للقصة تصميم فني كذلك الذي يضعه المهندس المعماري للبناء ؛ أو كتلك المذكرات التي يعدها المحامي قبل مباشرة إحدى قضاياه » .. القصة عندنا ينقصها التصميم الفني ؛ ينقصها كيف تبدأ ، وكيف تسير ، وكيف تنتهي ؛ دون أن يكون هناك شذوذ أو اضطراب في هذه المراحل الثلاث ! وكتاب القصة عندنا ينقصهم الفهم الصادق لأصول الفن القصصي في كثير من الأحيان ؛ فمنهم من يعتقد أن الواقعية في القصة مثلا هي أن ينقل عن الواقع ، المادي المحس ، نقلا يتركز في لفظ أو يتمثل في عبارة ! الواقعية هي أن تنقل الحياة إلى الورق — لا كما كانت — ولكن كما يمكن أن تكون ... الواقعية هي أن تسير الحادثة مع مجرى الحياة ... الواقعية هي الصدق في التعبير بحيث لا يطغى الخيال على الواقع ، ولا يجور الفن على الطبيعة . الواقعية بمعنى آخر هي الدقة في تصوير انعكاس الحياة على حواس الفنان . فأين كتاب القصة المصرية من هذه المعاني ؟! إنهم لا يفرقون في كثير من الأحيان بين أصول القصة التحليلية والموضوعية ، ومن هنا تجدهم يخلطون في كل قصة من هذا اللون أو ذاك بالنهاية المفتعلة والعقدة المنافية لمجرى الحياة ، ليحدثوا شيئاً من المفاجأة يثيرون به إعجاب القارئ ، ولو كانت تلك المفاجأة على حساب الفن ... مع أن القصة التحليلية حين تبلغ غايتها من تشريح العواطف والأهواء ، لا تكون محتاجة في الغالب إلى المفاجآت ؛ لأن هدفها الأول هو وضع العواطف الإنسانية تحت مجهر التحليل النفسي !

ونلمس إلى جانب ما ذكرت بعض الظواهر الأخرى التي لا تزال تترك أثرها العميق في بناء القصة المصرية ، تلمس الحوار المصنوع ، لأن كتابنا القصصيين يتخيلون أن فن الحوار يتمثل في اللفظ الأنيق ، والمعنى الرشيق ، والعبارة الموشاة ، دون أن يرجعوا إلى الحياة ليروا إن كانت تطيق هذا كله أو لا تطيقه . الفن في الحوار ليس هو الصناعة اللفظية ، ولكنه إنطاق الشخوص بما يمكن أن تنطقها به الحياة ، فلا يتحدث أحد الخدم مثلا كما يتحدث سارتر أو كسير كجورد ، ولا ينطق أحد الجهلاء كما ينطق بيكون أو ديكارت ! وتنظر فتجد أكثرهم يحركون في قصصهم شخوصاً من صنع المخيلة لا من صنع الحياة ؛ مخيلتهم هي التي ترتب المنظر ، وتحرك الشخوص ، وتصنع الحوار ، فتكون النتيجة زيفاً في العمل الفني يبعد القارئ عن جو الواقعية الذي تنشده كل قصة يرجى لها البقاء ؟ وتبحث عن تصوير الجو الشرقي والروح المصرية فلا تقع عليه في كثير مما أخرجه كتاب القصة في السنين الأخيرة . وهذا راجع إلى السطو على الفكرة في القصة الغربية ونقلها بمهارة إلى القصة المصرية كما يفعل الأستاذ توفيق الحكيم ، تماماً كما تأتي بغانية من غانيات باريس فتنزع عنها آخر ما ابتكرته محال الأزياء الباريسية ثم تلبسها « اللاءة اللاف ! » قد تكون أجمل ، وقد تكون أكثر فتنة ، ولكنها تتعثر في مشيتها ولا تستطيع أن تواصل السير . وكيف تستطيع وهذا اللباس الغريب يحد من حرية الجسم ورشاقة الحركة ؟ !

وكثير من قصاصينا تنقصهم صفة الخروج إلى الحياة ... ومن هنا تفوح من قصصهم رائحة « الجدران المغلقة » ، ونعني بها تلك الأركان المنعزلة التي يقبعون فيها ليرسموا للحياة لوحة تستمد ظلالها وأضواءها وألوانها من جو المحافل العامة والأندية الخاصة ... الفنان الحق هو من يخرج إلى الحياة ليستخدم كل حواسه في تذوق معانيها ، ونقل كل ما يمكن أن يلهب الخيال فيها إلى لوحات من التصوير الفني ، والفن — كما قلت غير مرة — ما لم يتصل بالحياة ، فهو همود وجمود وموت !

وإذا ما انتقلنا إلى المشكلة الثالثة وهي مشكلة المسرحية المصرية الحديثة في أي لون من ألوانها سواء كان هذا اللون هو الدرامة أو الميلودرامة أو الكوميديا ، وجدنا أن خطوات العمل الفني فيها أكثر تعثراً منه في القصة ، ومرجع هذا أيضاً إلى أن من يعالجون كتابة المسرحية في مصر أناس لا يلمون كل الإلمام بأصول الفن المسرحي . إن نجاح المسرحية يتوقف إلى حد بعيد على توفيق الكاتب في اختيار الفكرة أولا ، ثم على تهيئة الجو المسرحي لفكرته تهيئة تعتمد أول ما تعتمد على بعث الحياة والحركة في الحوار ، وفيما يعرض من نماذج بشرية يبتعد في تحريكها عن جو الدمى وقطع الشطرنج ، وعلى عنصري